

مجلة " حوار العرب " العدد 14 يناير 2006

تصويب

- شطب جملة " عن نجيب خلف " الواردة في ص. 83 عمود 1 سطر 20 .

- استبدال جملة " لدى وفاة نجيب " بجملة " لدى وفاة يوسف " الواردة في ص. 86 عمود 2 المقطع 111 سطر 1 .

معجماً (لكنه لم يُطَبَّع) يربو حجمه على حجم «محيط المحيط»، نحواً من خمسة أضعاف. ولقد استند تأليفه معظم حياته. وفي سبيل هذه الموسوعة كان يُطالع كل سنة ألوف الصفحات، بين مواقيت الجلسات، ريثما تأتي نوبته في المرافعة..

نظم قانون الجزاء العثماني شعراً

غير أن بولس سلامة يُجري في كتابه بعض النقد لأسلوب نجيب خلف فيقول: «وعلى إحاطته باللسان العربي، ويُعد إدراكه في أصول المفردات وأساليب الأداء، وتصديده للنظم والنثر والخطابة، لم يحالفه التوفيق، بل ربما نفر الناس فأعرضوا عن قلمه، ومرّ ذلك إلى رغبته في الإطالة المملّة، وشغفه بالغريب من الكلم، وإهماله لحلاوة اللفظ وموسيقاه في السامع». ويبلغ من قدرته اللغوية في نظم الشعر أن نظم قانون الجزاء العثماني في أرجوزة مظلّمها: قال نجيب خلف اللبناني الحمد لله المهيمن الرحمن

ويُعَدُّ، هذا نَظْمُ قانون الجزاء وقد توخيت به أن أوجزا

ويروي بولس سلامة كيفية لقائه بنجيب خلف فيقول: «يوم التقينا في قصر العدل، كان يبحث عن متخرّج في معهد الحقوق الفرنسي، بسبب القضاء المختلط يومئذ، لأنه كان ضئيل المعرفة باللغة الفرنسية. ولقي سواي من خريجي ذلك المعهد. ومعظمهم يفوقني بلغة راسين، بيد أنهم يكادون لا يفقهون معنى رسالة عادية بالعربية، فكيف بهم إذا تاهوا في تعاب نصوص مجلة الأحكام العدلية، أي القانون المدني القائم يومذاك؟ (...) كان صاحبنا أحوج ما يكون إلى ضليع بالفرنسية ولكن يفهم عربي»، لذا قال لي فور لقائه بي: «وجدت فيك طلبتي، فقلت: «وأنا بهذا القول أجدر». ولقيت منه مرشداً ورفيقاً وصديقاً وقيماً، وأفدت من علمه باللغة قسطاً غير قليل. ولما تاهل في العام 1931، في ما أذكر، وكنت

على الهفوة مهما كانت بسيطة. أنشأ في العام 1910، بالتعاون مع أخيه ملحم، وكان هو الآخر محامياً أُمّياً، وسليم المعوشي، مجلة «الحقوق»، أول مجلة حقوقية في جبل لبنان. ومن مؤلفاته الفقهية «المشكاة المضية للأصول الجزائية، الذي بقي مخطوطاً ولم يُنشر. وله مؤلفات في اللغة، منها كتاب «لماذا؟» الذي بحث فيه الأسباب التي دعت النحاة إلى وضع أحوال البناء والإعراب. وكان في العام 1903 أنشأ جريدة «المدارس» في برمانا، حين كان طالباً فيها، وياشر الكتابة في الصحف وهو لا يزال فتى تلميذاً، فكتب في «المنار» و«النور» و«النصير» و«لبنان» و«الأحرار» و«النهار» و«الروضة» و«اللسان» و«الأرن».

غير أن أهم مؤلفاته على الإطلاق، معجم «معالم اللغة»، الذي قال فيه شاعر القطرين خليل مطران لواقعه، يوم تصفحه: «إناك يا أستاذ ما نقلت معجماً، بل نقلت جبلاً».

وضع الشاعر بولس سلامة كتاباً عن نجيب خلف بعنوان «حكاية عمر»، صدرت الطبعة الأولى منه في العام 1962، قال فيه:

«كان نجيب خلف واحداً من النخبة الألى أنشأوا أنفسهم إنشاءً، فخلقوها خلقاً جديداً. فلئن ساواه أو تقدّمه في العلم بالشرع بعض متقهي الرعيل الأول من زملائه، أو نافسه في استكناه القوانين والأنظمة نضر من القضاة والمحامين، فلقد تمرد، رحمه الله، بخصائص ومدارك لم تجتمع لها يشبه. وقد شاعت المصادفات الموفقة أن أصرف معظم وقت تمرسي

بالمحاماة، في مكتب المأسوف على علمه وسجاياها، المرحوم نجيب خلف؛ فلقد صرفت زهاء سنة ونصف متدرجاً في مكتب ذلك المحامي الجليل. ويسرّني ويشجيني أن أنشر ذكريات طواها الزمن، في خمس وثلاثين مرة دارت بها الشمس حول الأرض. أكتبها وكأنني أعانيها أو أعيشها (على لغة المجددين) الساعة..

ويقول سلامة في كتابه: «كان نجيب خلف متبحراً في اللغة العربية حتى ليندر مثله في اللاهجين بالضاد. فقد ألف



نجيب بك خلف
(1882-1944)

ولا بد من الإشارة إلى أن بولس سلامة نشر هذه القصيدة كاملة في جريدة «الذئور»، بامضاء مستعار. ويروي سلامة في كتابه «حكاية عمر»، قائلاً: «التقيت في اليوم التالي لنشر القصيدة، الشاعر الكبير والمحدث الأنيق صديقي الغالي، المغفور له الشيخ أمين تقي الدين، على ساحة البرج. فعانقني وهنأني، فقلت: ماذا؟ فأجاب: يا بولس، لقد انتقمت للذوق الشعري من نجيب عن خمسين سنة خلت وعن خمسين تجيء. فحاولت الإنكار، فقال: بل أنت صاحبها، فضحكنا وضحك أكثر منا نجيب خلف نفسه».

يذكر بولس سلامة في كتابه بعض خصال ومزايا نجيب خلف، فيقول:

«كان يشتغل بأطراد سحابة ثلاث عشرة ساعة كل يوم، وربما نيفاً على هذا المقدار، فأبلغها الخمس عشرة ساعة في أكثر الأيام. يعمل في المكتب والبيت والسيارة والقطار والمحكمة. ماشياً أو قاعداً أو مستلقياً، فيتعذر عليك أن تراه، في سوى ميعاد الأكل والنوم، إلا قارئاً أو كاتباً، يحسب الوقت من أناس لا من ذهب. ويعتبر اللهو والعبث وارتداد المقاهي ودور السينما والسمر والكسل - ولو أنه في سبيل الراحة - أرجاساً من عمل الشيطان فيتجنبها، بوصفه جندياً وقف حياته على تحصيل المعرفة. وبصفة كونه قسيساً إنجيلياً متشدداً يحاسب نفسه على الهفوة اليسيرة، ولا أذكر - على طول صحبتي له في المحاماة وبعدها - أنه هم بكلمة نابية. فقد كان يغضب ولا يأثم. ومن خصائصه تعظيمه لرجال العلم. وأذكر أن رجلاً أرمنياً جاءه ذات يوم ليوكله بدعوى جزائية. فتقاضاه سبع ليرات عثمانية. ولما عرف أن موكله دكتور في الفلسفة. أعاد إليه المبلغ. فسألته في ذلك، فأجابني: هذا رجل علم وهو رصيف لنا، فخدمته فرض علينا».

حين بلغه نعي الأب العلامة لويس شيخو اليسوعي، بكى بكاءً مرّاً خلده الشاعر بولس سلامة في مقالة نشرها في صحيفة «الأحرار»، بعنوان: «إنجيلي يبكي راهباً يسوعياً».

طرائف قصر العدل

وتحت عنوان «طرائف قصر العدل» كتبت مجلة «المحاماة»: «وقصر العدل، إن هنا أو في أي بلد من بلدان العالم، كان ولا يزال الميدان الرحب للكثير من الحوادث الطريفة (...). والطرائف التي يشهدها قصر العدل، عديدة. لا يحصرها إحصاء. وأحراها بالرواية ما كان يحدث في أيام الانتداب، أيام كان قصر العدل الملاذ الوحيد لكل حرية استبيحت، أو كرامة امتهنت. والمحارب الوحيد الذي كانت ترتفع فيه أصوات المظلومين دون أن يتجرأ الظالم على أن يطاله بسوء..»

يومئذ قاضياً في محكمة بيروت البدائية، هنأته بأبيات لزمتم فيها الجد، وداعبته بأرجوزة، وهي من طراز أراجيزه في الغرابة، أذكر منها قولي:
قال الفتى الجهيد اللبناني
الحمد للمهيمن الرحمن

عمت صباحاً يا نجيب الخلف
حفاظاً كل حادثٍ مستطرف

وبعد أهدي وافر التهاني
للعيلم الزخار من قحطان

تلك العروس طالما نشدتها
قل لي بأي معجم وجدتها

دع سنك حيناً ادعاء المدعي
وما روه أحمد والزليعي

وملتقى الأبحر والهندية
يكل تلك الكتب المنسية

اللذ لا تعزف عن العروس
بالبحث والتنقيب في القاموس

يا عالماً مستنسكاً تقياً
نم يخسر الأعراب فيك شياً

فليهنأ العريس بالعروسة
ولينعم القسيس بالقسيصة

يا أيها القملس الخضم
والناخع الحبر به نأتم

الكثير اللهموم والغطريف
يتصدق التفراج والمهلوف

جاءتك رعبيباً بحسن جهمها
ذكرني بجدها لفظ اسمها

طمسني ذاك الأكل الصبير
بدون بزر، أب باليسير

خزائن للفقه واللغة، علة جزالة بيانها ودقة سبكها، وانه لعذون،
فَمَنْ تبخَّر في القانون، صرف وكده إلى المنطق والبرهان،
وكلاهما حرب على الخيال المبحج الذي به ينهض الشعر وبه
يطير. ولقد أحاط الخلفُ باللغة أيما إحاطة، فارتفعت الكلفة
بينه وبين المفردات، وأمسى غريبها قريباً إليه..

من شعر نجيب خلف:

تنكرت الأيام واستعجم الدهر
وقد ملأ الدنيا التعسّف والقدر

وجاشت نفوس الناس غضبى وانما
لغير مروءات أطاح بها الوغر

فقتل بعض الناس بعضاً كأنما
بُغاث سوادُ الناس والسائد الصقر

بل الوحش لا يسطو على الوحش مثلهم
وفي صدرهم غلٌ وفي خلقهم غمر

تضريهم الأطماع والحيف والعدا
ويدعوهمو للفتك خلقتهم الوعر

وكم جائح في الناس ما رد طففيه
يسومهمو خسف العبيد ويضطر

وكم ذلٌ للجبار قومٌ ضئيلةٌ
نفوسهمو خوارَةٌ هالها زجر

وما الناس إن يَعتوا سوى الناس قد غَوُوا
وغرهم ذلُّ الأصاغر فاغترُوا

يسود الفتى إن سؤدوه عليهم
فيصبح سلطاناً له النهي والأمر

وكم ساسَ أهل الحكم قوماً فأرهبوا
مناكبهم خسفاً فأعياهم الأمر

وكم سخروا منهم عبيداً أذلةً
من الضيم أعباءٌ لها ينحني الظهر

متى استُعيد الإنسان، والنفسُ حرّةٌ
فأين من النفس الإباءة والكبر؟

ويذكرون عن المرحوم نجيب خلف، أنه كان قانونياً ولفوياً،
وكان من الذين يثورون لأقلّ مخالفة أو افتئات على القانون.
وكان شديد الغيرة على لغة البلاد، وكثير الكره للانتداب
ولمئليهِ. فدُعِيَ مرّةً لكي يترافع في قضية ضخمة مبسّطة
أمام المحاكم المختلطة. وعند مثوله أمام المحكمة، راح يترافع
بالعربية. فنارت نائرة رئيس المحكمة، وكان فرنسياً، وطلب
إليه أن يكف عن المرافعة بالعربية، فأبى الأستاذ خلف، وأصرّ
على المضي في المرافعة بالعربية. فأبى رئيس المحكمة أن يدعه
يتابع، ورفع الجلسة، ووقعت الواقعة؛ فلا المحامي خلف
يتخلّى عن دعوى أحد من زملائه الذين يحذقون الفرنسية،
ولا هو يقبل أن يترافع بالفرنسية. وكانت حجته أن العربية

هي لغة البلاد، وأن ما من سلطة قضائية في البلاد،

تستطيع أن تمنعه من أن يترافع لديها
بالعربية، وما على القاضي الفرنسي إلا أن
يتعلم العربية، أو أن يستعين بترجمان. وبعد
أخذ وردّ طالا جداً، وبعد اتصالات عدّة بين
نقابة المحامين ووزارة الداخلية والمفوضية
العليا، عادوا وأقرّوا الأستاذ خلف على رأيه،
وأباحوا المرافعة بالعربية، واستعانوا
بترجمان يترجم أقواله...

وفي الكلمة التي ألقاها الشاعر بولس

سلامه بمناسبة إحياء الذكرى

العشرين لوفاة نجيب خلف والتي

نشرتها جريدة «الصفاء» (بتاريخ

1964/6/28) تحت عنوان: «نجيب

خلف معرفة ومروءة ويقظة ووجدان،

يروى سلامة شيئاً من مشاهداته كيف

كان يمضي نجيب خلف نهاره في العمل

المواصل، فيقول: «...ولشدّ ما كانت دهشتي حين صحت في

الساعة الثامنة، فرأيتُه يتأبط أوراقاً صغيرة ملوّنة، يشطب

فيها ويزيد، وهي جوامع مفردات لغوية، كان يُعدّها لمعجمه

الضخم، بل الموسوعة التي استنفدت حياته، ولم تزل إلى اليوم

تنتظر من يصدرها. فقلت له متى تذوق طعم الراحة؟ فقال:

اتبعني، تر كيف أرفه عن نفسي. ثم دخل غرفة منامه، وقد

أعدّ له فطور الصباح على صينية علت خزانة، خلفها مرآة

كبيرة، أمامها أدوات حلاقة. ثم دعا شقيقته أئينا وشقيقه

بنايوت فجلسا، ووقف بينهما وشرع يحلق ويأكل ويُملي على

أخته فهرست مجلة «الأحكام العدلية»، وعلى أخيه قصيدة

يتهمّم بها على مجلس النواب المفقود النصاب».

«...» وكان يقرض الشعر للترفيه، وفي كل الأغراض ما عدا

الغزل، وقلماً أبه للعنصر الجمالي في ما نظم، فكانت قصائده

والصناعة والفن على طريقة حديثة مستطرفة..

نصوص مختارة لنجيب خلف

■ بينما كنت أطلع في كتاب «أعمال الرسل القديسين»، عثرت في الآية السابعة من الفصل التاسع على ما نصه: «أما الرجال المسافرون معه (أي بولس) فوقتوا صامتين يسمعون الصوت ولا ينظرون أحداً». ثم أطلعت في الكتاب المنوّه به على هذه الآية، والذين كانوا معي (أي مع بولس) شاهدوا النور وخافوا ولكنهم لم يسمعوا صوت الذي كلمني، (1 ع 22:9). فمن المقابلة بين هاتين الآيتين يظهر تناقض ولما كان الكتاب المقدس خائباً من كل مناقضة، أتيت بهذا السؤال راجياً المنار، الساطع أن ينير البصائر لرفع التناقض وزوال الإشكال.

«المنار، دورية للروم الأرثوذكس

(بسكننا، نجيب إبراهيم خلف)

■ في العام 1916، كتب نجيب خلف عشر قواعد للحياة اليومية،

وهي:

- 1 - كن مع الله وأحبه واعبده وأطعه واتكل عليه واختبر ما هو مرضي عنده واذكر خالقك في أيام شبابك.
- 2 - أحب القريب وساعده واشعر مع المسكين واعمل الخير للجميع وكن نافعاً للجماعة ولا تكافئ عن شر بشر.
- 3 - اجتهد واصبر واحتمل واثبت.
- 4 - كن أميناً لله وللناس ولنفسك وصادقاً في كل شيء.
- 5 - كن حكيماً ومدبراً ومعتدلاً في كل شيء.
- 6 - اقتصد لنفسك وللآخرين.
- 7 - اهتم بكل شيء ولا تهتم لشيء.
- 8 - اعمل الواجب لأنه واجب وكن شريفاً في كل عمل ولا تهمل شيئاً من الواجب مهما كان صغيراً.
- 9 - جاهد لأجل الحق وكافح الشر واقتن الحق ولا تبعه.
- 10 - اذكر الله في كل عمل وأمر. واذكر أن الله يحضر كل عمل إلى الدينونة.

III - لدى وفاة نجيب إبراهيم خلف، في أوائل نيسان من العام 1978، قام ألبرت فرحات الرئيس الأول لمحكمة التمييز بزيارة منزله في فرن الشباك للتعزية. وتكلم عن نجيب خلف، فقال:

«كان المحامون على أيام الأتراك يوقعون لوائحهم بلفظة «بندد»، فولان. ولفظة «بندد» من أصل فارسي ومتداولة كثيراً في اللغة العثمانية وتعني العبد والرقيق والتابع الخ.. لم ترق هذه اللفظة للأستاذ خلف. المعروف بعنفوانه وكرهه الشديد لأي احتلال، فجمع زملاءه وتنادوا جميعاً بعدم استعمال هذه اللفظة وكان لهم ما أرادوا..»

وضع نجيب خلف مقدمة لمعجمه «معالم اللغة»، استهلها بما يلي: «إذ كنت قد شرعت منذ ثلاثين سنة في وضع معجم مطوّل (يبلغ زهاء ستين مجلداً بقطع المعاجم الكبرى، بحيث يؤلّف المجلد الواحد منها ما يزيد على ألف صفحة ونيف) تورّد الكلمات فيه على ما آلت إليه في الصيغة، لا على ما كانت عليه في الأصل فقط. وذلك بحيث تُردّ (اتكل) مثلاً (إت ك ل) ويُشار فيها إلى أن أصلها افتعل من «وكل، حتى إنه تورّد كلمة «الاتكال، وهي مصدرها في إت ك ل وحدها، وحين تُذكر «وكل، يُشار إلى ما يطرأ على مشتقاتها من إعلال وإبدال وإدغام إلى غير ذلك، وبحيث يورد على كل كلمة ما يناسبها أو يواردها أو يقاربها أو يوائمها أو يضادها من الألفاظ والعبارات والحمل وما ورد عليها من حكمة ومثل. (...) وجعلت له مقدمة تبلغ زهاء أربعة آلاف صفحة، تتضمّن أبحاثاً في متن اللغة وأصول الكلمات وأوزانها وفلسفة الحروف وتركيبها...».

■ ■ ■

كان يشتغل باطراد سحابة 15 ساعة في أكثر الأيام، يعمل في المكتب والبيت والسيارة والقطار والمحكمة، ماشياً أو قاعداً أو مستلقياً، ويتعذر على المرء أن يراه، في سوس ميعاد الأكل والنوم، إلا قارئاً أو كاتباً، فالوقت لديه من ألماس لا من ذهب

■ ■ ■

ويُنهي مقدمته بما يُشبه الوصية، قائلاً: «إن هذا المعجم سيكون ديواناً حديثاً، وجمهرة لفقه اللغة ولآداب العرب. تقرأ منه تاريخهم وأخلاقهم في لغتهم بمختلف الصور والأشكال، ومحفة للخلف لاستعادة أمجاد السلف... ولم أقتصر في جمع ذلك ولفظه على الأخذ من المعاجم المعروفة فحسب. ولكني جمعت من كتب الأدب والفن. بل جمعت فيه كل ما وصلت إليه يدي من كتبهم، وقد قرأت له نحو مليون ونصف المليون صفحة، استخلصت منها ما رأيت ولخصت ما رأيت. وأنا على اعتقاد ويقين أن في كل كتب الأدب والفن ما يؤلّف وحده معجماً كبيراً مستقلاً كاللسان وكالتاج. وكان من يقتني هذا المعجم يقتني مكتبة مختارة من ألوف الكتب من العلم والأدب